

تفسير البحر المحيط

@ 428 @ وهم الملائكة ، ومن نار وهم الجن ، ومن تراب وهم آدم . وخلق عيسى من الروح وكثير من الحيوان لا يتولد من نطفة . وقيل { كُلِّ دَابَّةٍ } على العموم في هذه الأشياء كلها وإن أصل جميع المخلوقات الماء ، فروي أن أول ما خلق الله جوهره فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً ، ثم خلق من ذلك الماء النار والهواء والنور ، ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء قال : { خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ } . وقال القفال : ليس { مِّن مَّاءٍ } متعلقاً بخلق وإنما هو في موضع الصفة لكل دابة ، فالمعنى الإخبار أنه تعالى خلق كل دابة متولدة من الماء أي متولدة من الماء مخلوقة لله تعالى . ونكر الماء هنا وعرف في { وَجَعَلْنَا مِّنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ } لأن المعنى هنا { خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ } من نوع من الماء مختص بهذه الدابة ، أو { مِّن مَّاءٍ } مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة هوام وبهائم وناس كما قال { يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَخَ شِدَارٌ يَّعَصِفُهَا عَلَى يَعْصْفُ فِي الْأَكْلِ } وهنا قصد أن أجناس الحيوان كلها مخلوقة من هذا الجنس الذي هو جنس الماء ، وذلك أنه هو الأصل وإن تخللت بينها وبينه وسائط كما قيل : إن أصل النور والنار والتراب الماء . % . وسمي الزحف على البطن مشياً لمشاكلته ما بعده من ذكر الماشين أو استعارة ، كما قالوا : قد مشى هذا الأمر وما يتمشى لفلان أمر ، كما استعاروا المشفر للشفة والشفة للجفلة . والماشي { عَلَى بَطْنِهِ } الحيات والحوت ونحو ذلك من الدود وغيره . و { عَلَى رِجْلَيْنِ } الإنسان والطير والأربع لسائر حيوان الأرض من البهائم وغيرها ، فإن وجد من له أكثر من أربع . فقليل : اعتماده إنما هو على أربع ولا يفتقر في مشيه إلى جميعها وقد ما هو أعرف في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة مشى من له رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع . وفي مصحف أبي ومنهم من يمشي على أكثر ، فعم بهذه الزيادة جميع الحيوان لكنه لم يثبت قرآناً ولعله ما أورده قرآن بل تنبيهاً على أن الله خلق من يمشي على أكثر من أربع كالعنكبوت والعقرب والرتلاء وذي أربع وأربعين رجلاً وتسمى الازن وهذا النوع لندوره لم يذكر . .

{ يَخْلُقُ اللَّاهُ مَا يَشَاءُ } إشارة إلى أنه تعالى ما تعلقت به إرادة خلقه أنشأه واخترعه ، وفي ذلك تنبيه على كثرة الحيوان وأنها كما اختلفت بكيفية المشي اختلفت بأمور آخر . .

2 ({ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ })

فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّن بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ مُذْئِبِينَ * أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْصِفَ اللَّهُ عَلَيْهُمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَعْلِيَّكُمْ إِلَاهُ وَرَسُولِي لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ أَن يَكُولُوا سَمِعَ عَلَنًا وَأَطَاعَ عَلَنًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُؤْتِيَنَّ أَمْرًا تَهْتَدُونَ * قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي إِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ رَضًا كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ رَضًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْوَصِيرُ } (2) .

نزلت إلى قوله { إِلَّا اللَّهَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } في المنافقين بسبب منافق اسمه بشر ، دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ودعا هو إلى كعب بن الأشرف فنزلت . .

ولما ذكر تعالى دلائل التوحيد أتبع ذلك بدم قوم آمنوا بألسنتهم دون عقائدهم . { ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ } عن الإيمان . { بَعْدَ ذَلِكَ } أي بعد قولهم { وَمَا أُوْلَئِكَ } إشارة إلى القائلين فينتفي عن جميعهم الإيمان ، أو إلى الفريق المتولي فيكون ما سبق لهم من الإيمان ليس إيماناً إنما كان ادعاء باللسان من غير مواطاة بالقلب . وأفرد الضمير في { لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ } وقد تقدم قوله { إِلَاهُ } { وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ } لأن حكم الرسول هو عن الله . قال الزمخشري : كقولك أعجبتني زيد وكرمه يريد كرم زيد ومنه :

